الانسجام الصوتي وتوزيع الفونيمات في سورة القمر: مقاربة فونولوجية.

Phonetic Harmony and Phoneme Distribution in Surah Al-Qamar: Phonological Approach

م.م سبأ إسماعيل فرج حسان

With Saba Ismail Faraj Hassan

جامعة الأنبار/ كلية التربية للبنات/ قسم اللغة العربية

University of Anbar / College of Education for Women, Department of Arabic Language

sabaa.i.faraj@uoanbar.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الانسجام الصوتي /توزيع الفونيمات/ البنية الصوتية/ الإيقاع القرآني/ سورة القمر

Keywords: Phonetic Harmony, Phoneme Distribution, Phonetic Structure, Qur'anic Rhythm, Surah Al-Qamar

الملخص

يتناول هذا البحث الانسجام الصوتي وتوزيع الفونيمات في سورة القمر من خلال مقاربة صوتية تحليلية، تهدف إلى الكشف عن النظام الصوتي الداخلي للسورة وبيان علاقته بالبنية الدلالية للنص القرآني. وينطلق البحث من فرضية مفادها أن التوزيع الصوتي في السورة يخضع لانتظام مقصود يسهم في تعزيز الإيقاع التعبيري وترسيخ المعاني الإنذارية.

اعتمدت الدراسة على تحليل الفونيمات الصامتة والمتحركة، ورصد مظاهر التكرار والتجانس الصوتي، وتتبع الإيقاع الناتج عن توالي المقاطع والفواصل القرآنية. كما تم الوقوف على أثر الأصوات الشديدة والمجهورة والمهموسة في تشكيل الدلالة وإبراز الطابع التحذيري للسورة.

وتوصل البحث إلى أن الانسجام الصوتي في سورة القمر يشكّل عنصرًا بنائيًا فاعلًا، وأن توزيع الفونيمات يسهم في تحقيق التماسك الصوتي والدلالي، بما يعزز تأثير النص في المتلقي ويؤكد خصوصية البنية الصوتية للخطاب القرآني.

:Abstract

This study examines phonetic harmony and the distribution of phonemes in Surah Al-Qamar through an analytical phonetic approach, aiming to reveal the internal sound system of the surah and its relationship to the semantic structure of the Qur’anic text. The study is based on the assumption that the phonetic distribution in the surah follows a deliberate and systematic pattern that enhances expressive rhythm and reinforces warning and admonitory meanings.

The research analyzes consonant and vowel phonemes, traces patterns of phonetic repetition and harmony, and examines the rhythmic effects produced by the succession of syllables and Qur’anic verse endings. It also highlights the role of voiced, voiceless, and plosive sounds in shaping meaning and emphasizing the surah’s admonitory tone.

The findings demonstrate that phonetic harmony in Surah Al-Qamar constitutes an essential structural element rather than a purely aesthetic feature, and that phoneme distribution contributes to phonetic and semantic cohesion, thereby intensifying the text’s impact on the recipient and affirming the uniqueness of the Qur’anic phonetic structure.

المقدمة:

يحظى الدرس الصوتي في الدراسات القرآنية بأهمية بالغة؛ لما للصوت من دور جوهري في بناء الدلالة وتوجيه المعنى، ولا سيما في النص القرآني الذي تتضافر فيه المستويات الصوتية والإيقاعية مع المقاصد البلاغية والدلالية. وتُعد سورة القمر من السور التي تتجلّى فيها الخصائص الصوتية بوضوح، لما تتسم به من كثافة إيقاعية وتكرار فواصل صوتية ذات طابع إنذاري، مما يجعلها مجالًا خصبًا للدراسة الصوتية التحليلية.

وتكمن أهمية البحث في الكشف عن النظام الصوتي الداخلي لسورة القمر، وبيان أثر الانسجام الصوتي وتوزيع الفونيمات في تحقيق التماسك النصي وتعزيز الدلالة، بعيدًا عن الاقتصار على الوصف الصوتي المجرد. أما هدف البحث فيتمثل في تحليل مظاهر الانسجام الصوتي ورصد أنماط توزيع الفونيمات في السورة، وبيان علاقتها بالإيقاع القرآني والمقاصد التعبيرية للنص.

وينطلق البحث من مشكلة علمية تتمثل في التساؤل الآتي:

إلى أي مدى يسهم الانسجام الصوتي وتوزيع الفونيمات في سورة القمر في بناء الدلالة وتكثيف الأثر الإيقاعي للنص القرآني؟

وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، القائم على تتبع الفونيمات الصامتة والمتحركة، وتحليل تكرارها وتجانسها الصوتي، وربط ذلك بالسياق الدلالي والوظيفي للسورة، بما يسمح بالكشف عن البنية الصوتية بوصفها عنصرًا بنائيًا فاعلًا في الخطاب القرآني.

وانقسم البحث على مبحثين، جاءا على النحو الآتي:

المبحث الأول:

الانسجام الصوتي في سورة القمر: المفهوم والمظاهر

المبحث الثاني:

توزيع الفونيمات وأثره في الإيقاع والدلالة في سورة القمر

ثم عقدت الدراسة بخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

التمهيد

يمثّل الصوت أحد المرتكزات الأساسية في بنية اللغة، إذ لا يقتصر دوره على كونه وسيلة للتلفّظ، بل يتجاوز ذلك ليؤدي وظائف دلالية وتعبيرية تتفاعل مع السياق العام للنص. وقد تنبّه اللغويون العرب منذ وقت مبكر إلى أثر الأصوات في المعنى، فأشار سيبويه إلى اختلاف الدلالة

باختلاف مخارج الأصوات وصفاتها، وعدّ ذلك من خصائص العربية الصوتية الدقيقة، ولا سيما في سياقات الاستعمال البلاغي والنصي (سيبويه، ١٩٨٨م: ٤/٤٣٣).

ويُعدّ الانسجام الصوتي من الظواهر البارزة في الخطاب القرآني، حيث تتآلف الأصوات وتتجاور وفق نظام خاص يُسهم في تحقيق التماسك الصوتي والإيقاعي للنص. وقد أكّد ابن جني أن توالي الأصوات وتقاربها ليس أمرًا اعتباطيًا، بل يرتبط بما يحدثه الصوت من أثر في السمع والنفس، وهو ما عبّر عنه بقوله: «إن أكثر هذه المواضع إنما جاءت لتناسب المعاني بالأصوات» (ابن جني، الخصائص، د.ت: ٢/١٥٢).

وفي السياق ذاته، يحتل توزيع الفونيمات موقعًا مهمًا في تحليل البنية الصوتية، إذ إن تكرار بعض الأصوات أو غلبة أنماط فونيمية بعينها يسهم في توليد الإيقاع الداخلي للنص، ويعزّز مقاصده الدلالية، وهو ما تؤكده الدراسات الصوتية الحديثة التي تنظر إلى الصوت بوصفه عنصرًا بنائيًا فاعلًا في الخطاب، لا مجرد وحدة نطقية معزولة (أنيس، ١٩٦١م: ٧٩–٨٢).

وتبرز سورة القمر نموذجًا دالًا لهذه الظواهر الصوتية؛ لما تتسم به من إيقاع متسارع، وفواصل صوتية متقاربة، وكثافة في أصوات الشدة والجهر، مما يسهم في تكريس الطابع الإنذاري والتحذيري للسورة، ويضاعف أثرها التداولي في المتلقي. ومن هنا، يقتضي البحث الوقوف على هذه الظواهر وقفة تحليلية تكشف انتظامها ووظيفتها داخل النسيج النصي للسورة.

وانطلاقًا من هذا الإطار النظري، ينتقل البحث إلى المبحث الأول لدراسة مفهوم الانسجام الصوتي ومظاهره التطبيقية في سورة القمر، تمهيدًا لتحليل توزيع الفونيمات وأثره الإيقاعي والدلالي في المبحث الثاني.

المبحث الأول
النظام الصوتي للحروف

- دراسة الأصوات المفخمة والمرققة في السورة
- الحروف ذات الجهر والهمس ودورها في التصوير الصوتي
- دلالة التكرار الصوتي للحروف (تكرار القاف والميم)

دراسة الأصوات المفخمة والمرققة في السورة

التفخيم (لغة) "من الفخامة وهي العظمة والكثرة، فهي عبارةٌ عن ربوِ الحَرْف وتسمينه، فهو والتغليظ واحد" (ابن الجزري، د. ت: ٣/٩٠).

والأصوات المخمة ذكرها الجزري– رحمه الله– عند كلامه عن صفات الحروف، وذكر منها الاستعلاء، فقال: "والاستعلاء من صفات القوة، فهي سبعة يجمعها قولك: قِظْ خُصَّ ضغطٍ، وهي حروف التفخيم على الصواب... وقيل حروف التفخيم هي حروف الإطباق، ولا شكَ أنها أقواها تفخيمًا.(ابن الجزري، د. ت: ٢٠٢/١)

أما الترقيق (لغةً): "من الرقة، وهو ضد السِّمَن، فهو عبارة عن انحاف ذات الحرف ونحوله ".(ابن الجزري، د. ت: ٩٠/٢)

وحروفه بينها صاحب (غاية المريد) في معرض الحديث عن صفة الاستفال.

فقال: "الاستفال: وهو ضد الاستعلاء".

ومعناه لغةً: الانخفاض، واصطلاحًا: انخفاضُ اللسان إلى قاع الفم عند النطق بأغلب حروفه.

وحرفه: أربعة وعشرون حرفًا الباقية من أحرف الهجاء بعد حروف الاستعلاء وهي: الهمزةُ، والباءُ، والتاءُ، الثاءُ، والجيم، والخاءُ، والدالُ، والذالُ، والراءُ، والزايُ، والسينُ، والشينُ والعينُ، والفاءُ والكافُ، واللامُ، والميمُ، والنون، والهاء، والواو، والياء، والألف، والواو المدية، والياء المدية، وهذه الحروف حكمها الترقيق قولًا واحدًا إلا الألف واللام والراء فسيأتي الكلامُ عليها". (قابل نصر، ٢٠٠٠م: ١٤٢/١)

والواضح أن سورة القمر تتضمن حروفًا مرققة وحروفًا مفخمة، لعل أبرز الحروف المفخمة (القاف والصاد والظاء والطاء)، وتظهر في آيات عديدة من الصورة، مثل قوله تعالى:

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} (سورة القمر، الآية ١)، وقوله: {فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ} (سورة القمر، الآية ٢٧)، وقوله: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ} ۛ (سورة القمر، الآية ٧)، وقوله: {رِيحًا صَرْصَرًا} (سورة القمر، الآية ١٩)، وقوله: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} (سورة القمر، الآية ٤٧)، وغيرها الكثير.

ومن هنا تلعب حروف التفخيم والترقيق دورًا مهمًا في إبراز الإنذار والوعيد في السورة.

فالحروف المفخمة– والتي تطغى على السورة الكريمة– تمنح الكلمات المتعلقة بالعذاب وقعًا حادًا ومؤثرًا، وهذا يظهر بجلاء التناسب بين المعنى اللغوي والمعنى الذي أكدَهُ العلماء في هذه السورة، من إخبار الله تعالى عن إنذاره للمشركين وتصويره للعذاب الذي حل بهم.

فالله تعالى "يخبر أن الساعة وهي القيامة اقتربت وآن أوانها، وحان وقتُ مجيئها، ومع ذلك هؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ".(السعدي، ٢٠٠٠م: ٨٢٣/١).

"والاقترابُ على هذا اقتراب نسبي، على نسبة ما بقي من أجل الدنيا بما مضى منه. (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ١٤٨/١٧)

وقد جاء "معبرًا عنه بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة" (ابن كثير، ١٩٩٠م: ٥٥٥/٤)

وافتتاح السورة بلفظ: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ } (سورة القمر، الآية ١).

يتبع جوًا من التوجس والحذر، قال أهل اللغة: في (افتعل) مزيد تجشم ومبالغة فمعنى اقترب دنا دنوًا قريبًا". (النيسابوري، ١٤١٦هـ: ٢١٧/٦).

والترقب، فالاقتراب في اللغة يفيد دنو الشيء وهو دنوٌ يقتضي حبس النفس والاستعداد، أما في النص القرآني فيضيف معاني أخذ الحيطة والتهيؤ لوقوع حدثٍ خطير لم يبق بينه وبين الإنسان فاصل بعتد به.

فإنَّ هذا الجو الذي ذكرناهُ في النص الكريم لا يبنى دلاليًا فحسب، بل تمتد آثارُهُ إلى البنية الصوتية للنص، ولا سيما في صفات التفخيم والترقيق التي تتوزع في آيات السورة، فالتفخيم بما يحمله من امتلاء في الجرس وقوةٍ في المخرج ينسجم مع البيئة الدلالية للإنذار، إذ يضاعف وقع الألفاظ ذات العلاقة بالعذاب والوعيد يجعلُ حضورها السمعي أكثر صلابة وحدة على نحوٍ يتلاءم مع خطورة الحدث المقترب الذي تشير إليه السورة.

وفي المقابل يأتي الترقيق بوصفه قيمة صوتية مُكملة يخفف من حدة الإيقاع حينًا ليبرزها في مواضع أخرى، فينشأ من هذا التعاقب صوتًا يجعل توازنًا مقصودًا بين الشدة والين لكنه لا ينفصل عن الجو التحذيري الذي أسسهُ الاستهلال.

ومن اللطيف أن أشير إلى أن للقمر في الوجدان العربي والشرعي دلالة تتجاوز كونه جرمًا سمائيًا مضيئًا، إذ يرتبط في ثقافة العرب القديمة– ولا سيما عند تغير حاله كالخسوف والانشقاق– بمعنى الخوف من الطوارق الكونية والإنذار بوقوع أمرٍ عظيم فهو ملازمٌ لليل الذي هو زمان الرهبة والوحشة.

وقد جاء الدين الإسلامي بإبطال هذه الاعتقادات وما فيها من التطير والتعلق بغير الله. فقد كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، ظنًا منهم أن هذا الأمر لا يحدث إلا لموت عظيم، فصحح–النبي صلى الله عليه وسلم– لهم هذا الفهم الخاطئ، فقال: "إنَّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فعليكم بالدعاء حتى تنكشف. (الطبراني، د. ت: ٤٢١/٢٠)

وفي هذا إبطال ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من تأثير الكواكب في الأقدار. وفي حديث آخر أنَّ النبي– صلى الله عليه وسلم–نظر إلى القمر، فقال: "يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب". (ابن حنبل، ٢٠٠١م: ٨/٤٣)

فكأنَّه– صلى الله عليه وسلم– ينبه على خسوف القمر، وأنَّه آية من آيات الله، تنذر بحدوث بلابل وأهوال وتذكر بيوم القيامة.

ومن ثم فإنَّ ارتباط القمر في سورة القمر بدلالة التخفيف ليس اعتباطًا، بل هو امتدادًا لمعناه في العرف العربي وتنصيصٌ عليه في الشرع، وتوظيف المقصود له في السياق القرآني، لإبراز البعد التحذيري الذي ننتظم عليه السورة كلها.

الحروف ذات الجهر والهمس ودورها في التصوير الصوتي

جاء في بيان معنى الحرف المجهور والمهموس عند سيبويه بأنَّه: "حرف أتبع الاعتماد عليه في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه، حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت... وأما المهموس: فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه". (سيبويه، ١٩٨٨م: ٤/٤٣٤)

" والمهموسُ أخف من المجهور" (سيبويه، ١٩٨٨م: ٤/٤٥٠)، فالحروف من حيث صفاتها منها المجهور ومنها المهموس "والهمس من صفات الضعف، كما أن الجهر من صفات القوة، والمهموسة عشرة يجمعها قولك: سكت فحثهُ شخص، والهمس الصوت الخفي، فإذا جرى مع الحرف النفس لضعف الاعتماد عليه كان مهموسًا". (ابن الجزري، د. ت: ١/٢٠٢)

ويتبين أثر الجهر والهمس في سياق سورة القمر إذا نظر إليه في ضوء ما ذكره المفسرين عن هذه السورة.

فقد ذكر ابن عاشور– رحمه الله–: أن سورة القمر " بنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن الألفاظ بآيات الله التي شاهدوها، وآثار آياته على الأمم الماضية التي علموا أخبارها وشهدوا آثارها". (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ٢٧/٢٠٤)

كما أنَّ الإنذارات في السورة جاءت "للتوبيخ والتخويف". (النيسابوري، ١٤١٦هـ: ٦/٢١٩)

ففي السورة الكريمة تتابع مشاهد الأمم المكذوبة وصور العذاب التي حلت بهم مما يجعل المناخ العام للسورة مناخًا إنذاريًا خالصًا. وفي هذا الإطار تتجلى الوظيفة البلاغية للحروف الجهرية بما تحمله من قوة في النبر وحدةٍ في الصوت، فتؤكد حدة التحذير وشدة الوعيد، بينما يجيء الهمس– في مواضع مخصوصة– ليحدث توزانًا صوتيًا يزيد من إبراز مواقع الشدة حين تتعاقب بعده.

ومما يعزز هذا المقام الإنذاري ما ورد في السنة "في حديث أبي واقدٍ الليثي أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يقرأ بقاف و(اقتربت الساعة). في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في

المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والعيد وبدء الخلق وإعادته والتوحيد وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة".(ابن كثير، ١٩٩٠م: ٤٧٠/٧)

وهذا يدل على عناية الخطاب النبوي بإبلاغ هذه السورة في سياقاتٍ تحتاج إلى إيقاظِ القلوب وتنبيه السامعين ,ومن ثم يتضح أن البناء الصوتي للسورة– من جهر وهمس– جاء مناسبًا للمقام الذي تتلى فيه ومتسقًا مع موضعها ومقويًا لمقصدها في تهديد المكذبين وتحذير الغافلين.

ويتأكد من هذا أن التحليل الصوتي لا ينفصل عن المقصد التفسيري والشرعي للسورة وأن الجهر والهمس فيها ليسا مجرد صفات صوتية، بل أدوات فاعلة في تعزيز لغة الوعيد التي تنتظم السورة من أولها إلى آخرها.

دلالة التكرار الصوتي للحروف (مثل تكرار القاف والميم)

يعد التكرار الصوتي للحروف من الخصائص الإيقاعية المهمة في سورة القمر حيث يساهم في إبراز الجو الإنذاري والوعيدي للسورة. ويتضح ذلك أشد الاتضاح في حرفي القاف والميم، اللذين يكرران حضورهما في كلمات محورية، مما يضفي على النص حدة في المعنى واستمرارية في التحذير، ويجعل الصوت أداة دلالية تعز الرسالة القرآنية.

أولًا: دلالة تكرار حرف القاف.

القاف "حرف مجهور مستعل" (الداني، ١٩٨٨م: ١٣٠/١) "يكون أصلًا لا بدلًا ولا زائدًا" (ابن جني، سر صناعة الإعراب، ٢٠٠٠م: ٢٨٧/١) وهو حرف شديد مفخم، من حروف القلقة بل هو أصلها كما يقول الجزري في كلامه عن حروف القلقة: "أصل هذه الحروف القاف؛ لأنَّه لا يقدر أن يؤتى به ساكنًا إلا مع صوت زائد لشدة استعلائه" (ابن الجزري، د. ت: ٢٠٣/١)

فالقاف من الحروف ذات الجرس القوي وانفجار المخرج ولذلك اقترن حضوره في العربية– وفي القرآن خاصة– بدلالات الشدة والصلابة والقوة، ونراه يبرز في سورة القمر بشكل لافت، إذ تكرر في عدد من الأسماء والأفعال التي تحمل إيحاءً بالإنذار والتخويف، من ذلك تكرارها في الأسماء نحو: (القمر، مستقر، قوم، منقعر، قسمة، الناقة، مقتدر، سقر، قدر، قبلهم، القرآن، المتقين، مقعد، صدق) وفي الأفعال (اقتربت، انشق، قالوا، يقولوا، يقول، التقى، قدر، القى، ارتقبهم، عقر، ذوقوا) بالإضافة إلى تكرار (لقد) في أحد عشر موضعًا.

إن تكرار حرف (القاف) ليس تكرارًا اعتباطيًا، بل يؤدي وظيفة إيقاعية تبرز حدة المشاهد وشراستها، وتتناسب مع موضوع السورة القائم على تصوير العذاب الذي حل بالأمم المكذبة، فجرس القاف الحاد يجعل السامع أقرب إلى إدراك الصدمة والتهويل، وهذا ما تسعى السورة إلى إيقاعه في نفس المتلقي.

كما أن اجتماع (القاف) مع أصوات مفخمة أخرى داخل النص (كالطاء والصاد) يزيد من أثر القوة والتخويف، مما يجعل الوظيفة الصوتية هنا متناغمة تمامًا مع الهدف الدلالي للسورة.

ثانيًا: دلالة تكرار حرف الميم

الميم "حرف مجهور يكون أصلًا وبدلًا وزائدًا" (ابن جني، سر صناعة الإعراب، ٢٠٠٠م: ٨٩/٢) وتسمى "الحرف الراجع؛ لأنَّها ترجع إلى الخيشوم لما فيها من الغنة وهي أقوى من النون؛ لأنَّ لفظها لا يزول" (الداني، ١٤٠٧هـ: ١١١/١).

فالميم حرف شفوي ذو غنة يمتاز بنبرة رخيمة تتدرج بين اللين والامتلاء، لذلك كثيرًا ما يستخدم في القرآن الكريم لتلوين الإيقاع بين الشدة واللين، وهذا هو الخط الرفيع الرابط بين حقيقتها والمعاني المستخدمة لها.

وقد تكون الميم في كلمات محورية (القمر، منذر، مزدجر، قوم) وفي الأسماء (القمر، مستمر، أهواءهم، أمرٍ، مستقر، جاءهم، مزدجر، حكمة، يوم، أبصارهم، منتشر، مهطعين، قبلهم، قوم، مجنون، ماء، منهمر، مدَّكِر، منعقر، ثمود، مرسلو، فارتقبهم، مشهد، محتضر، هشيم، محتظر، نعمة، مقتدر، منتصر، الجمع، موعدهم، أمر، المجرمين، وجوههم، مس، أمرنا، لمح أشياعكم، متسطر، المتقين، مقعهد، مليك، مقتدر).

وفي الأفعال (حملناه، سيعلمون، فارتقبهم، نبئهم، نجيناهم، طمسنا، صبحهم، أخذناهم، سيهزم).

ويؤدي تكرار حرف الميم هنا وظائف عدة منها: تحقيق الانسجام الصوتي بين آيات السورة بسبب طبيعة الميم الرخيمة، وتخفيف حدة الإيقاع في بعض المواضع بعد الأصوات الشديدة والمفخمة

(كالقاف) مما يمنح السورة توازنًا صوتيًا مقصودًا.

وهي تحدث ايقاع تتابعي لأن الميم من الحروف التي يسهل تكرارها في السياق فيأتي حضورها بكثره ليوكد وحدة السورة الموضعية ولا ننسى أن الغنة المرتبطة بالميم تعطي للكلمات وقعاً له نبرة استمرارية وكأنها تذكير متتابع بالعذاب الشديد.

ونخلص من جميع ما تقدم , إلى أن اجتماع (القاف والميم) داخل سياق واحد ينتج توازنًا صوتيًا دقيقًا , فالقاف يمنح النص قوة وحده , تحذيرا مباشرًا، في حين أن الميم تمنح النص تتابعًا ايقاعيًا يذكر باستمرار , الإنذار وتكرار النداء في الأمم السابقة.

المبحث الثاني

- الإيقاع الصوتي في سورة القمر

_ نظام الفاصلة القرآنية في سورة القمر

- التجانس الصوتي بين أواخر الآيات

- ظاهرة لا مدود والإطالة الصوتية ودورها في الإنذار

سورة القمر:

سورةٌ جليلةٌ من السور المكية، يبلغ عدد آياتها خمسًا وخمسين آية، وقد نزلت بعد سورة الطارق. ومثل سائر السور المكية، تعالج هذه السورة أصول العقيدة الإسلامية، وتغلب عليها نبرة التهديد والإنذار للمشركين من قريش الذين كذبوا برسالة النبي ﷺ.

استُهلّت السورة بذكر معجزةٍ من معجزات الرسول ﷺ، حين طلب المشركون دليلًا بيّنًا على صدقه، فسألوه أن يُريهم انشقاق القمر، فجاءت المعجزة تصديقًا لنبوته وتأييدًا له، ومع ذلك أصرّوا على الجحود والعناد، ووصفوه بالسحر.

ثم انتقلت السورة إلى تصوير أهوال يوم القيامة، في سياقٍ من الوعيد والإنذار، وبعدها عرضت مصارع الأمم المكذّبة، وما حلّ بها من عقوباتٍ دنيوية مدمّرة، بدءًا بقوم نوح، ثم عاد وثمود ولوط وفرعون وغيرهم من الطغاة الذين كذبوا رسلهم، فأخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدر، وأهلكهم عن آخرهم. (سورة القمر، الآيتان ٤٥– ٤٦)

وعقب استعراض تلك المشاهد المؤلمة، وجّه الخطاب إلى كفار قريش محذّرًا إياهم من مصيرٍ مماثل، بل أشدّ وأقسى إن هم استمروا في تكذيبهم وعنادهم.

واختُتمت السورة ببيان مآل الفريقين: المتقين في جنات النعيم، والمجرمين في العذاب الأليم، على منهج القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب.

وسُمّيت هذه السورة بـ"سورة القمر إحياءً لذكرى تلك المعجزة العظيمة، معجزة انشقاق القمر، التي كانت آيةً ظاهرةً على صدق الرسالة، وتأكيدًا لمضمون دعوتها (سلامة، ٢٠٠٨م: ٤٨).

تعريف النسق لغةً واصطلاحًا

النسق لغةً: "ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء وقد نسقته تنسيقًا" (ابن منظور، ١٩٩٢م: ٢٤٧/١٤). ومن معاني النسق: "ونسق ينسق نسقًا فهو ناسق والمفعول منسوق ونسَق ونسَّق ومنه التنسيق بمعنى واحد وهو التنظيم ونسقت الكلام نسقًا: عطف بعضه على بعض ورتبته وهذا كلام متناسق وقد تناسق" (الصالح، د. ت: ٦٦٣). " نسَقَّهُ: نظمه" (رضا، ١٩٦٠م: ٤٥١/٥).

اصطلاحًا:

"هو ما جاء من كلام العرب على نظام"(حمداوي، د. ت: ٧).

الايقاع الصوتي في سورة القمر:

يُعدّ مصطلح الإيقاع من المفاهيم ذات الأهمية البالغة في تأثيره في المتلقي، إذ يرتبط ارتباطًا وثيقًا ببنية النص القرآني وأثره النفسي. ويُكثر سيد قطب من توظيف هذا المصطلح في تفسيره في ظلال القرآن، لأنه يتعامل مع السور القرآنية بوصفها أنساقًا إيقاعية متباينة، لكلٍّ منها نغمتها الخاصة وأثرها الشعوري.

ومن النماذج الدالة على ذلك قوله تعالى في القرآن الكريم: آ{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ } (سورة القمر، الآيات ١-٣) حيث يتجلى حضور صوت الراء المتوسط بما يحمله من إيحاء بالقوة والشدّة، مولّدًا إيقاعًا صوتيًا مميزًا. إن كثرة تكرار هذا الصوت تعود إلى طبيعته النطقية القائمة على ضربات متتابعة للسان على اللثة، وهو ما يضفي على السياق طابعًا حركيًا متكررًا، يوحي بتجدّد العذاب وتتابعه على المكذبين بآيات الله المنزّلة على رسوله ﷺ. فكأن العذاب يُستعاد عليهم مرة بعد أخرى، كما استُوصلت به أمم سابقة كفرت برسالات أنبيائها.(قطب، د. ت: ٣٤٢٥)

ويعزّز هذا التحول الإيقاعي تكرار صوت الراء في فواصل الآيات، ولا سيما في خواتيم السورة، بما يوحي بالدوام والاستمرار؛ فكأن المتقين في جنات ونعيم مقيم لا انقطاع له، نعيم يجمع بين الحسّي والمعنوي في آنٍ واحد. (عبد الواحد، د. ت: ١٥٨- ١٥٩)، إذ يقول تعالى: آ {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} (سورة القمر، الآيتان ٥٤-٥٥)

ومن ثمّ تتجلى القيمة الدلالية لتكرار صوت الراء في امتداده عبر آيات السورة الخمس والخمسين، إذ ينتقل من نغمٍ قوي عاصف في بداياتها إلى نغمٍ هادئ مطمئن في ختامها. ولما كان حرف الراء من أقوى الحروف العربية وأشدها تماسُكًا، فإن الوقف عليه بالسكون يضفي عليه رخامةً ولينًا، فيتحقق بذلك التوازن بين الشدة والرقة" (عبد الواحد، د, ت: ٣٨٣)

وهكذا نلاحظ سجعة الراء وتكرارها على مدار (٥٥) آية , وهكذا أسهم تكرار هذا الصوت وسجع فواصله في إكساب النص القرآني إيقاعًا قويًا ينسجم مع جو السورة المهيب، فيحرك المشاعر، ويثير الرهبة والقلق في النفس، قبل أن ينتهي بها إلى أفق الطمأنينة والسكينة.

نظام الفاصلة القرآنية في سورة القمر:

١- تعريف الفاصلة لغة واصطلاحًا:

أ- الفاصلة لغة:" الفاصلة مأخوذة من الفعل "فصل" وجمعها فواصل وهي الخرزة تفصل بين الخرزتين في العقد. الفاصل: الحاجز بين الشيئين فصل بينهما يفصل فصلًا فانفصل وفصلت الشّيء أي قطعته" (معلوف، ١٩٨٨م: ٥٨٥)

والفاصلة "الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النّظام , والفصل: القضاء بين الحقّ والباطل" (ابن منظور، ١٩٩٢م: ١١/١٨٨- ١٨٩).

ب- الفاصلة اصطلاحًا:

١- قال أبو عمرو الداني: "الفاصلة كلمة آخر الجملة". (الزركشي، د. ت: ١/٥٣)

٢- قال أبو بكر الباقلاني: " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني" (الباقلاني، ١٩٩٧م: ٢٧٠)

والفاصلة القرآنية "عنصر أساسي من عناصر اللغة الإيقاعية. والقرآن الكريم يمتاز بحسن الإيقاع ,فتأتي الفاصلة في آن واحد" (عبد العال، د. ت: ٢٣٣). والمقصود بالفاصلة في القرآن: ما تنتهي به الآية الكريمة , وهي جزء من الآية وعنصر تعبيري متميز "وتنطوي على دلالتين هامتين, الأولى: دلالة صوتية تتمثل في الإيقاع والرنين الصوتي المحكوم بنسق الآية والسياق العام , والأخرى: دلالة معنوية تحمل تمام الفكرة في الآية". (عبد العال، د. ت: ٢٣٤)

فإن سورة (القمر) البالغ عدد آياتها خمسًا وخمسين , جميعها منتهية بفاصلة متحدة التقفية في حرف الراء (الشريفي، د. ت،).

التجانس الصوتي بين أواخر الآيات:

نلاحظ في استهلال سورة القمر: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ } (سورة القمر، الآية ١)، حيث يبرز حضور حرف السين بوصفه عنصرًا صوتيًا منسجمًا مع الدلالة العامة للسورة. فهذا الحرف يتكرر في مفرداتها وسياقاتها، مما يضفي على نسيجها اللغوي طابعًا خاصًا. وعند تأمل قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (سورة القمر، الآية ١٧)، ثم تتبع مواضع السين في بقية الآيات، يظهر مدى اندماج هذا الصوت في بنية النص، بما يحقق تجانسًا واضحًا بين الأصوات والمعاني، فنتأمل قوله تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } (سورة القمر، الآيتان ٤٧- ٤٨) فلنتمعن في الآيات الأخرى للسورة بنظرة فاحصة- بالرجوع إلى القرآن- كي نرى كيف تدخل حرف السين بهذا الشكل المتجانس بين عبارات النص القرآني.

وتتميّز السورة بكثرة القصص ذات الجرس القوي والإيقاع المؤثر، إذ تعرض أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، مصوّرةً ما نزل بهم من صنوف الهلاك في الدنيا، إلى جانب الوعيد

بعذاب الآخرة. ويأتي عرض هذه الأقاصيص بأسلوب ذي نبرة حاسمة، تُحدث في النفس وقعًا شديدًا يتناسب مع مشاهد العذاب والإنذار

ومن ذلك أقصوصة قوم عاد: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } (سورة القمر، الآيات ١٨- ٢٢)، إذ جاء وصف عذاب الأقوام المكذبة في الدنيا، ثم ذكر عذاب الآخرة بأنه أدعى وأمرّ {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} (سورة القمر، الآيتان ٤٦- ٤٨)

ومن ذلك قصة قوم عاد، حيث تصف الآيات مشهد الريح العاتية التي دمّرتهم، مبينةً ما حلّ بهم من عقوبة دنيوية قاسية، ثم تعقّب ذلك بالإشارة إلى أن عذاب الآخرة أشدّ وأبقى، في سياق يجمع بين التخويف والتذكير.

إن هذا التآلف في النص القرآني يبلغ ذروة الجمال الفني، ومن أبرز مظاهره الإيقاع الموسيقي الذي يتولد من انسجام الألفاظ مع السياق الذي وردت فيه. فالتناسق بين البنية الصوتية والدلالة المعنوية يُسهم في تكوين أثر جمالي عميق، تتآزر فيه الحروف والكلمات لتشكّل نسقًا متكاملًا يجمع بين القوة التعبيرية وروعة الأداء.

المبحث الثالث: التكرار الصوتي والدلالي

١-تعريف التكرار لغة واصطلاحًا:

يُعدّ التكرار من الظواهر اللغوية الواضحة في بنية الخطاب العربي، ويمكن بيان مفهومه من جانبين: اللغوي والاصطلاحي.

أ-تعريف التكرار لغة:

يرجع أصل كلمة التكرار إلى مادة (كرّ)، التي تدلّ على الرجوع والعودة. ويُقال: كرّ الشيء إذا رجع، وكرّر الأمر إذا أعاده مرةً بعد أخرى. فالكرّ هو الرجوع، والتكرير هو الإعادة، ومنه قولهم: كرّرت الشيء تكرارًا وتكريرًا، أي أعدته وأرجعته ثانية. (ابن منظور، ١٩٩٢م: ٤٦/١٣)

ب- تعريف التكرار اصطلاحًا:

أما في الاصطلاح، فيُقصد بالتكرار إعادة اللفظ ذاته ضمن سياق واحد ولغرض دلالي واحد، بحيث يُراد من هذه الإعادة توكيد المعنى أو تعميقه أو إحداث أثرٍ إيقاعي خاص في النص. (عباس، ١٩٧٨م: ١٩)

٢- ظاهرة التكرار في بعض سور القرآن الكريم:

كلّ من يتدبّر آيات القرآن الكريم يجد أن التكرار سمة بارزة في أسلوبه، سواء أكان ذلك في الألفاظ أم في العبارات أم في الموضوعات. وقد عُدّ هذا اللون من الأسلوب من قبيل المتشابه في القرآن، كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} (سورة آل عمران، الآية ٧).

ويؤدي التكرار دورًا مهمًا في تحقيق وحدة النص وتماسكه، على المستويين الدلالي والإيقاعي؛ إذ يمنح الخطاب انسجامًا صوتيًا، ويعزّز أبعاده الإيحائية، ويضفي عليه نغمًا خاصًا يجمع بين العذوبة والقوة في آنٍ واحد. وغالبًا ما يأتي التكرار في القرآن في صورة إيقاعات متناغمة، ذات تنغيم واضح وأثر مؤثّر في السامع.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك سورة القمر، إذ تكررت فيها الآية: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (سورة القمر، الآية ١٦) ثلاث مرات، كما تكررت عبارة: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (سورة القمر، الآية ١٧) في مواضع متعددة، فضلًا عن تكرار قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ... } (سورة القمر، الآية ١٩) في سياق الحديث عن الأمم المكذّبة.

حيث تكررت فيها آية: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (سورة القمر، الآية ١٦) ثلاث مرات، وتكررت معها: {فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ } (سورة القمر، الآية ٣٧) مرة واحدة، وكذلك: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (سورة القمر، الآية ١٧)

ويكشف هذا التكرار عن وظيفة بلاغية واضحة، تتمثل في توكيد المعنى، وترسيخ صورة العذاب والإنذار في الأذهان، فضلًا عن إحداث إيقاع صوتي قوي ينسجم مع جو السورة العام القائم على التهديد والوعيد.

تكرير الحروف في سورة القمر ومعانيها:

مما لاشك فيه أنّ التكرير الصوتي يقوم على أصغر الوحدات وصولًا إلى أكبرها، فالوحدات الصغرى تقوم على تكرير الحروف ودلالاتها ضمن الكلمة الواحدة ومنه في الجمل أو العبارات، وهو ما اعتمدناه من خلال الوقوف على إحصائية الحروف المكرر ضمن كل آية من آيات سورة القمر كالآتي:

الحروف الأكثر استعمالًا هي الحروف الجهورة بداية بحرف " النون " فـ " اللام " و" الميم " ثم " الراء "... الخ. وهذا لتناسبها وسبب نزول السورة الكريمة، وكذا الغرض منها، كما نلقي " الألف " أكثر الحروف دورانًا في السورة حيث ورد (٢٥٨) مرة بجميع أنواعه من(مهموز ومد وتعريف وهوائي، ولكن هذا الصوت له عدة مصادر يمكن ان تستخدم من خلالها ويلية مباشرة حرف

النون ب(١٤٦) مرة وما يحمله من غنة وموسيقى وهذه الغنة تحتاج الى تمهل وكأن السورة تبلغ رسالتها الى المتلقي بتمهل ويلي هذا حرفا (اللام) و"الميم" فالميم يدل على معاني الشدة والقطع والكسر والرقه. (عباس، ١٩٧٨م: ٧٦).

فتيسير القران يستدعي عرضه كل هدوء ولطف ورقة، إضافة الى حرف الراء الذي تكرر بـ (١١٠) مرة الذي يدل على القوة أيضًا وغلبة هذه الحروف على الحروف الاخرى من حيث انتشارها على كامل السورة جاء ملاءمة ومناسبة للسورة ودلالتها وخدمة لأغراضها المنشودة؛ من تأثير في نفس متلقيها وتخويفهم وتهويلهم وإنذارهم وردعهم عن طريق نقل صورة جهنم وجحيمها والعياذ بالله، وكذا تصوير هول القيامة والتأكيد على المصير الذي ينتظر المجرمين، وبهذا تبعث هذه الحروف في الموضع إيقاعًا قويًا يوقظ الشاعر وينبى العقول ويخطف الأبصار والقلوب.

– تكرير المقاطع من خلال عرض بعض الايات من سورة القمر:

يتفق جل العاملين في الحقل اللغوي على أنّ المقاطع الصوتية الركيزة الأساسية لبناء الوحدات التركيبية والأشكال والكلمات الصوتية وبهذا يعد المقطع بأنواعه التي سنراها لاحقًا في بحثنا مرحلة وسيطة بين الصوت المفرد (الحرف) والكلمة المركبة من عدة اصوات (حروف) وهذا ما اشرنا اليه سابقًا أن الوقوف على التحليل المقطعي لبعض آيات سورة القمر يدلنا على أن أكثر القاطع ورودًا المقطع القصير (ص ح) ثم المقطع الطويل المغلق (ص ح ص) فالمقطع الطويل المفتوح (ص ح ح) وصولا إلى المقطع المغلق الزائد في الطول (ص ح ح ص)، كما نجد أيضا انعدام تام للمقطع المفتوح الزائد في الطول(ص ح ح ص) فيها، كما أننا نلحظ أنّ فواصل آي سورة القمر جلها ينتهي بالمقطعين الطويل المغلق والقصير، حيث تناسبت هذه المقاطع واغراض السّورة بما تحمله من معاني الزجر والردع والوعيد التي قدمت للمشركين حيث تكذبيهم رسل الله، فاستعمال العبارات الزجرّية والالفاظ الردعيّة يهز أسماع ويشدّ انتباه متلقيه، وتجسد هذا من خلال استعمال المقاطع (ص ح) و (ص ح ص) بكثرة.

كما لا يمكننا أن نغفل أنّ المقاطع تختلف في النطق والسمع وطبيعة الموسيقى، إضافة إلى أنّ المقاطع الصوتية في هذه السّورة في ترتيبها تحقق لنا سلالة نطقيّة، ونسقًا موسيقيًا عذبًا موحيًا برسالة من المولى عز وجل، إضافة الى وضوح سمعي عال وأميز، وموسيقى لغوية جذابة.

وبعد الوقوف على تكرار الاصوات والمقاطع وأثرها العام على سورة القمر وما تحمله من دلالات تخدم المعنى العام من زجر وتخويف وهول ووعيد... الخ، آثرنا عرض الألفاظ المكررة المتعلقة بالكلم

(الألفاظ)...

تكرار الالفاظ في سورة القمر ودلالتها:

يحقق لنا تكرار الالفاظ جرسًا موسيقيًا تدركه الاسماع بيسر وسهوله، فهو يثبت الفكرة في ذهن المتلقي، فبالرغم من أنّ تكرار اللفظ هو أبسط أنواع التكرار إلاّ أنّه في القرآن الكريم له عدة اغراض ضمن السياق العام للسورة الكريمة.

وفيما يلي عرض لأهم الألفاظ المكررة في سياقات مختلفة محاولين الوقوف عند دلالاتها المتنوعة إن عدد الكلمات المكررة في سورة القمر (١٠٨) كلمة بالقياس مع عدد كلمات السورة الكريمة.

وأنّ اكثر الكلمات ورودًا في السورة هي كلمة (النّذر) إذ وردت (١٢) مرة، بما فيها كلمة " أنذر" التي تشاركها في الجذر الثلاثي (ن ذ ر) هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فنجد تكرار كلمة(العذاب) (٦) مرات، ان ما يشدّ انتباهنا هو أنّ عدد مرات (الإنذار) هو ضعف عدد مرات (العذاب)، وهو دليل على رحمة الله ولطفه بعباده: فلا عذاب الا لمن ابى واستكبر بعد تكرار الإنذارات.

تكررت كذلك كل من الكلمات (يسر، القران، أرسل) اربع مرات فالمولى عز وجل ارسل القران ويسره للذكر لمن يشاء من عباده عن طريق رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم).

ونخلص الى أنّ تكرار الكلمات في سورة " القمر " لم يمكن اعتباطًا بل كان لغرض مقصود قوامه إبداع الدلالة، وتوصيل الرسّالة الى المتلقي فهو بهذا أسهم توضيح المعنى وإبلاغه للمتلقي.

التكرار التركيبي ودورة في التوكيد والتهويل:

اتخذ التكرار عدة صور وأشكال في سورة القمر، فتكرار الحروف غير الألفاظ، وتكرار الألفاظ والعبارات، فمن الطبيعي أنّه يحدث جرسًا موسيقيًا يدركه السّامع المتذوق والمتدبر لكلام الخالق فيتأثر به ويؤثر من خلاله على غيره من المتلفين، إذ إنّ نغمه الجملي يؤدي إلى تقوية معناه وإيضاحه وتبيانه، وهذا ما يسوقنا الى الحديث عن تكرار العبارات والآيات في سورة القمر.

فنجد تكرارا عبارة قوله تعالى (فهل من مّدَّكر) إذ تكررت في سّتة (٦) مواضع في السورة في الآيات (١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ٥١) ففي المواضع الأول وردت في التعقيب على سفينة نوح (عليه السلام)، وذلك في قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (سورة القمر، الآية ١٥) (فالمضير) في "تركناها" عائد على (ذات الواح ودسر)، أي: السفينة والاستفهام عمن يتذكر بتلك الآية مستعمل في معنى التحضيض على التذّكر بهذه الآية واستقصاء خبرها (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ٢٧/١٨٧– ١٨٨)، ونعني من هذا أنّ الاستفهام هنا حثّ على التفكير والتدبير في قصة نوح وفي سفينته.

وتكرار هذا الاستفهام في التعقيب على أربع قصص من القصص التّي تعرضت لها السورة: نوح وعاد وثمود ولوط، وما هذا إلاّ للحثّ على التفكير والتّدبر في القران الكريم. ومنه يمكننا القول أنّ (الإدكار) في الآيات: (١٧– ٢٢– ٣٢– ٤٠) هو نفسه (الادّكار) عند الحثّ على الاعتبار بقصة نوح وسفينته، إلاّ أن بين "الإدّكارين" فرقًا دقيقًا، فـ(الإدكار) السالف (إدّكار) اعتبار عن مشاهدة آثار الأمم البائدة، و(الإدّكار) المذكور هنا (إدّكار) عن سماع مواعظ القران البالغة وفهم معانيه والاهتداء به (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ١٩/٢٧)، فالحث ها هنا على التمعن والتفكر في القران واضح.

والشيء نفسه نجده في قولهِ تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (سورة القمر، الآية ٥١) للحث على الاعتبار والاتّعاظ من الأمم السابقة، ولكن ما يدركه المتلقي بسهولة هو افتقاد المتعظ والمعتبر.

إذن "فقصة نوح وعاد وثمود ولوط في كلّ مرة منها من التخويف والتخدير، مما حل بهم، فيتعظ بها حامل القرآن وتاليه ويعظ غيره". (الكرماني، ١٣٩٦هـ: ٢٣/٣)

فهذه الدعوات المكررة كلها موجهة إلى كفار مكّة لحثّهم على وجوب الاعتبار والاتعاظ والتّذكر بغية الإقلاع عن الكفر، والاعتبار بالأمم السابقة لهم، حيث أنّ هذه الأخبار لم تكن مجهولة بالنسبة لهم، وأقدمها قصة نوح عليه السلام وسفينته.

ومن التراكيب التي تكررت في سورة القمر قوله سبحانه وتعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (سورة القمر، الآية ١٦)، حيث تكررت أربع (٤) مرات في سورة القمر في الآيات (١٦– ١٨– ٢١– ٣٠ (، ولكل منها دلالتها المغايرة والمختلفة عن لاحقاتها ففني الموضع الاول : جاءت في التعقيب على قصة نوح عليه السلام، فهذا الاستفهام في قوله: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} هنا "مستعمل في التعجب من شدة هذا العذاب الموصوف... وهو تعريض بتهديد المشتركين ان يصيبهم عذاب جزاء تكذيبهم الرسول (صلي الله عليه وسلم) واعراضهم وأذاهم كما اصاب قوم نوح (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ١٨٧/٢٧)، فالنذارة هنا كررت من الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقرمه طلبًا لإيمانهم.

أمّا (الموضع الثاني): فكانت في بداية الحديث عن قصة عاد، وقبل أنّ يذكر ما حّل بهم من عذاب في قوله تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (سورة القمر، الآية ١٨)، فهي هنا ليست تكرار لنظيرها السّابق في خبر قوم نوح، وهو التعجب وإنّما (تكرير التوبيخ والتهديد والنعي عليهم) (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ١٩٠/٢٧) وما هذا الاستفهام إلّا إجمالًا لحال العذاب وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما يبينه بعده قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} (سورة

القمر، الآيـة ١٩) والبليـغ مـن يـتفطن لهـذا التغـاير بينهمـا" (بـن عاشـور، ١٩٨٤م: ٢٧/١٩١-١٩٢).

فالاستفهام هنا لاستشارة المتلقي وتشويقه لمعرفة نوع وطبيعة العذاب الذي لحق بقوم عاد.

لكن الموضع الثالث: كان في التعقيب على قصة عاد بعد ذكر الله سبحانه وتعالى العذاب الذي أصابهم اذا هو: "تكرير لنظيره السابق عقب قصة قوم نوح لأن مقام التهويل والتهديد يقتضي تكرير ما يفيدهما" (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ٢٧/١٩٥) فهو يفيد التعجيب من شدة العذاب إضافة إلى التهويل التخويف وأشار الكرماني إلى أنَّه "أعافي قصة عاد عبارة (فكيف كان عذابي ونذر) فجعل الأولى في الدنيا والثانية في الآخرة، وقيل الأولى لتحذيرهم قبل إهلاكهم والثاني لتحذير غيرهم بهم بعد هلاكهم" (الكرماني، ١٣٩٦هـ: ٣/٢٣٠) وما يزيد هذا الا تشويقًا للمتلقي حتى يرهف سمعه ليدرك نوع العذاب.

والوضع الرابع: أين وردت في التعقيب على قصة ثمود مرة أخرى فـ (القول فيه كالقول في نظيره الواقع في قصة قوم نوح فليس هو تكرار ولكنه خاص بهذه القصة) (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ٢٧/٢٠٢)، حيث نجد أنّ هذه القصة سرد للجرائم المرتكبة من طرف قوم ثمود (فقالوا، نتبعه، نادوا صاحبهم، تعاطى، عقره..) ومن ثم ذكر العذاب الذي حلّ بهم (صيحة واحدة... كهشيم المحتظر)، فلاستفهام هنا لإثارة المتلقي وتشويقه لما حدثّ لهؤلاء القوم بعد ارتكابهم كل هذه الجرائم.

فالمواضع الأربع التي ارتكابهم كل هذه الجرائم. فالمواضع الاربع التي ورد فيها الاستفهام من خلال قوله تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) تختلف في كل مرة حسب القصصي وفي كل مره لها اثر ووقع في نفس متلقيها، إلا أنَّ الأمر المشترك بينهما جميعا هي الايقاع الموسيقى من ناحية والتأكيد على شدة العذاب وهوله من ناحية اخرى.

لكن الملاحظ من خلال هذه السورة أنه اختلف الأمر في قصة لوط، حيث استخدم الأمر في قوله تعالى: {فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} (سورة القمر، الآية ٣٩) بدل الاستفهام الذي ورد في القصص السابقة. فما السّر هنا ؟ السّر يمكن في أنّ قصّة قوم لوط مختلفة عن غيرها دلالة وغرضا وعبرة، وكأنّ الله يوجهُ لهم الامر مباشرة فلا مجال للاتعاظ، والاعتبار بسبب دناءة افعالهم وجرائهم الشنيعة.

وتكررت في سورة القمر الآية الكريمة في قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} (سورة القمر، الآية ١٧) أربع (٤) مرات في الآيات: (١٧- ٢٢- ٣٢- ٤٠) إذ إنّها تكررت بعد كلّ قصّة من القصص التي عرضتها سورة القمر: نوح، عاد، ثمود، لوط، عدا قصّة فرعون، وهي السّورة الوحيدة التي لم يعقب عليها القران الكريم في هذهِ السورة.

فقد اعيد في هذه السورة الكريمة "ذكر التيسير ليخبر أنّه يسره بحسن التأليف للحفظ وبحسن البيان عما يخاف بالوعظ) (الطوسي، د. ت: ٤٥/٩)، ويعنى هذا أنَّ القرآن ميسر في كلّ الأحوال لمن أراد، فالتكرير لكل من الآيات (١٧– ٢٢– ٣٢– ٤٠) دعوة مستمرة للكافرين حتى يعودوا الى رشدهم.

الانسجام بين الايقاع الصوتي والمعنى الدلالي:

سبق أنّ ذكرنا أنَّ الإيقاع عنصر من عناصر البيان القرآني المعجز فالبيان القرآني يتسّم بإيقاع جذاب، يؤثر في القارئ تأثير عميقًا، و الايقاع القرآني يتكون من (مخارج الحروف في الكلمة الواحدة، ومن تناسق الايقاعات بين كلمات الفقرة، ومن اتجاهات المدّ في الكلمات، ثم من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطّردة في الآيات، ومن حرف الفاصلة ذاته) (قطب، د. ت: ٨٥).

وهذا الإيقاع الجذاب متناسق مع السّياق الذي ورد قص فيها ومتناسق مع نظام الفواصل القرآنية ومتناسق مع جوّ السّورة العام وقد يغّير في بعض كلمات الآية بالتقديم والتأخير، وقد يغير في بعض حروف الكلمة في الآية لتحقيق التناسق في الايقاع القراني الجذاب، كما في قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} (سورة القمر، الآيات ٦– ٨)

وإنّ لروعة جمال الإيقاع وحلاوته أثر بالغا في إكساب القرآن الكريم روعة وجاذبية خاصة، كما أنّ جانبًا كبيرًا من هذا الجمال الإيقاعي مردّه إلى تناسب الأصوات وحسن تآلفها في النسيج الصوتي لتنظم الآيات.

الخاتمة

خلص البحث إلى أن الانسجام الصوتي في سورة القمر ليس ظاهرة جمالية عرضية، بل عنصر بنائي يسهم في تشكيل البنية الدلالية والإيقاعية للنص القرآني.

أظهر تحليل توزيع الفونيمات وجود انتظام صوتي مقصود، يتجلّى في تكرار بعض الأصوات وتجاورها، بما يعزّز التماسك الصوتي ويكثّف الأثر التعبيري للسورة.

بيّنت الدراسة أن غلبة أصوات الشدة والجهر أسهمت في إبراز الطابع الإنذاري والتحذيري للسورة، وجعلت الإيقاع الصوتي متوافقًا مع مقاصد الخطاب القرآني.

كشفت النتائج عن ترابط وثيق بين المستوى الصوتي والمستوى الدلالي، حيث أدّى الصوت دورًا فاعلًا في توجيه المعنى والتأثير في المتلقي.

أكّد البحث أن المقاربة الصوتية تمثل مدخلًا منهجيًا مهمًا في دراسة النص القرآني، لما تتيحه من إمكانات في الكشف عن وجوه الإعجاز الصوتي والإيقاعي.

التوصيات

١- توسيع الدراسات الصوتية لتشمل سورًا قرآنية أخرى، بهدف المقارنة بين أنماط الانسجام الصوتي وتوزيع الفونيمات.

٢- الإفادة من المناهج اللسانية الحديثة في تحليل البنية الصوتية للنص القرآني، وربطها بالمستويات الدلالية والبلاغية.

٣- إدماج التحليل الصوتي ضمن الدراسات التفسيرية والبلاغية؛ لما له من دور في تعميق فهم الخطاب القرآني.

٤- تشجيع الدراسات البينية التي تجمع بين علم الأصوات والدراسات القرآنية وتقنيات التحليل الحاسوبي.

المصادر

١- ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير. (د.ت). النشر في القراءات العشر (تحقيق علي محمد الضباع). المطبعة التجارية الكبرى.

٢- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د. ت). الخصائص (تحقيق محمد علي النجار). الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

٣- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (٢٠٠٠). سر صناعة الإعراب. دار الكتب العلمية.

٤- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د.ت). الخصائص (تحقيق محمد علي النجار). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥- ابن حنبل، أحمد بن محمد. (٢٠٠١). مسند الإمام أحمد بن حنبل (تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد). مؤسسة الرسالة، ط١.

٦- ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٩٨٤). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.

٧- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (١٩٩٠). تفسير القرآن العظيم (تحقيق سامي بن محمد سلامة). دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢.

٨- ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٩٢). لسان العرب (تحقيق عبد الرحمن محمد قلم النجدي). دار جياد.

٩- الآلوسي، محمود بن عبد الله. (د.ت). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تحقيق علي عبد الباري). دار الفكر، ط١.

١٠- أنيس، إبراهيم. (١٩٦١). الأصوات اللغوية. دار النهضة العربية، ط٣.
١١- الباقلاني، محمد بن الطيب. (١٩٩٧). إعجاز القرآن (تحقيق السيد أحمد صقر). دار المعارف، ط٥.
١٢- حسن، عباس. (د.ت). خصائص الحروف ومعانيها. اتحاد الكتاب العرب، ط١.
١٣- حمداوي، جميل. (د.ت). نظرية أدبية ونقدية جديدة (نظرية الأنساق المتعددة).
١٤- رضا، أحمد. (١٩٦٠). معجم متن اللغة. دار مكتبة الحياة.
١٥- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. (د.ت). البرهان في علوم القرآن (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم). دار المعرفة.
١٦- الزمخشري، محمد بن عمر. (١٤٠٧هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. دار الكتاب العربي.
١٧- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (٢٠٠٠). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق). مؤسسة الرسالة، ط١.
١٨- سلامة، محمد حسين. (٢٠٠٨). الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم. الآفاق العربية.
١٩- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (١٩٨٨م). الكتاب (تحقيق عبد السلام محمد هارون). مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣.
٢٠- سيد قطب. (د.ت). التصوير الفني في القرآن. دار المشرق.
٢١- سيد قطب. (د.ت). في ظلال القرآن. دار الشروق.
٢٢- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (د.ت). الدر المنثور. (الناشر غير مذكور).
٢٣- الطبراني، سليمان بن أحمد. (د.ت). المعجم الكبير (تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي). مكتبة ابن تيمية، ط٢.
٢٤- الطوسي، محمد بن الحسن. (د.ت). التبيان في تفسير القرآن (تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي). دار إحياء التراث العربي.
٢٥- عباس، فضل حسن. (١٩٧٨). القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته. دار الفرقان، ط١.
٢٦- عبد الواحد. (د.ت). زيادة الإيقاع في القرآن الكريم. دار الفيحاء.
٢٧- قابل نصر، عطية. (٢٠٠٠). غاية المريد في علم التجويد. القاهرة، ط٧.
٢٨- الكرماني، محمد بن حمزة. (١٣٩٦هـ). أسرار التكرار في القرآن (تحقيق عبد القادر أحمد عطا). دار الاعتصام.
٢٩- معلوف، لويس. (١٩٨٨). المنجد في اللغة والأعلام. دار المشرق، ط٣.
٣٠- نهضة الشريفي. (د.ت). من جماليات العنصر الإيقاعي.

٣١- النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد. (١٤١٦هـ). غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تحقيق زكريا عميرات). دار الكتب العلمية، ط١.

References

Ibn al-Jazari, Shams al-Din Abu al-Khair. (n.d.). Al-Nashr fi al-Qira'at al-'Ashr (Edited by Ali Muhammad al-Dabbagh). Al-Matba'ah al-Tijariyah al-Kubra.

Ibn Jinni, Abu al-Fath Osman. (n.d.). Al-Khasais (Edited by Muhammad Ali al-Najjar). Al-Hay'ah al-Misriyah al-'Ammah lil-Kitab, 4th ed.

Ibn Jinni, Abu al-Fath Osman. (2000). Sirr Sina'at al-I'rab. Dar al-Kutub al-Ilmiyah.

Ibn Jinni, Abu al-Fath Osman. (n.d.). Al-Khasais (Edited by Muhammad Ali al-Najjar). Al-Hay'ah al-Misriyah al-'Ammah lil-Kitab.

Ibn Hanbal, Ahmad bin Muhammad. (2001). Musnad al-Imam Ahmad bin Hanbal (Edited by Shuaib al-Arna'ut and Adel Murshid). Mu'assasat al-Risalah, 1st ed.

Ibn Ashur, Muhammad al-Tahir. (1984). Al-Tahrir wa al-Tanwir. Al-Dar al-Tunisiyah lil-Nashr.

Ibn Kathir, Ismail bin Umar. (1990). Tafsir al-Quran al-'Azim (Edited by Sami bin Muhammad Salama). Dar Tayyibah lil-Nashr wa al-Tawzi', 2nd ed.

Ibn Manzur, Muhammad bin Mukarram. (1992). Lisan al-Arab (Edited by Abd al-Rahman Muhammad Qalam al-Najdi). Dar Ji'ad.

Al-Alusi, Mahmud bin Abdullah. (n.d.). Ruh al-Ma'ani fi Tafsir al-Quran al-'Azim wa al-Sab' al-Mathani (Edited by Ali Abd al-Bari). Dar al-Fikr, 1st ed.

Anis, Ibrahim. (1961). Al-Asawat al-Lughawiyah. Dar al-Nahdah al-'Arabiyah, 3rd ed.

Al-Baqillani, Muhammad bin al-Tayyib. (1997). I'jaz al-Quran (Edited by al-Sayyid Ahmad Saker). Dar al-Ma'arif, 5th ed.

Hassan, Abbas. (n.d.). Characteristics of Letters and their Meanings. .
.Union of Arab Writers, 1st ed

Hamdawi, Jamil. (n.d.). A New Literary and Critical Theory (Theory of .
.(Multiple Systems

Rida, Ahmad. (1960). Dictionary of Language Text. Dar Maktabat al- .
.Hayah

Zarkashi, Badr al-Din Muhammad bin Abdullah. (n.d.). Al-Burhan fi .
'Ulum al-Quran (Edited by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim). Dar al-
.Ma'rifah

Zamakhshari, Muhammad bin Umar. (1407 AH). Al-Kashaf 'an Haqa'iq .
.Ghawamid al-Tanzil. Dar al-Kitab al-Arabi

Al-Sa'di, Abd al-Rahman bin Nasir. (2000). Taysir al-Karim al-Rahman .
fi Tafsir Kalam al-Mannan (Edited by Abd al-Rahman bin Mu'alla al-
.Luwihaq). Mu'assasat al-Risalah, 1st ed

Salama, Muhammad Husayn. (2008). The Rhetorical Miracle in the .
.Quran. Al-Afkar al-Arabiyah

Sibawayh, Abu Bishr Amr bin Uthman bin Qanbar. (1988). Al-Kitab .
(Edited by Abd al-Salam Muhammad Haron). Maktabat al-Khanji, Cairo,
.3rd ed

.Sayyid Qutb. (n.d.). Artistic Depiction in the Quran. Dar al-Mashriq .

.Sayyid Qutb. (n.d.). In the Shadow of the Quran. Dar al-Shuruq .

Al-Suyuti, Abd al-Rahman bin Abi Bakr. (n.d.). Al-Durr al-Manthur. .
.((Publisher not mentioned

Al-Tabarani, Sulayman bin Ahmad. (n.d.). Al-Mu'jam al-Kabir (Edited .
.by Hamdi bin Abd al-Majid al-Salafi). Maktabat Ibn Taymiyah, 2nd ed

Al-Tusi, Muhammad bin al-Hasan. (n.d.). Al-Tabyan fi Tafsir al-Quran .
.(Edited by Ahmad Habib Qasir al-Amili). Dar Ihya' al-Turath al-Arabi

Abbas, Fadl Hassan. (1978). Quranic Stories: Their Allusions and .
.Influences. Dar al-Furqan, 1st ed

Abd al-Wahid. (n.d.). The Increase of Rhythm in the Quran. Dar al-'Fayha.

Qabil Nassar, Atiya. (2000). The Goal of the Seeker in the Science of Tajwid. Cairo, 7th ed.

Al-Karmani, Muhammad bin Hamzah. (1396 AH). The Secrets of Repetition in the Quran (Edited by Abd al-Qadir Ahmad Ata). Dar al-I'tisam.

Ma'luf, Louis. (1988). Al-Munjid in Language and Proper Names. Dar al-Mashriq, 3rd ed.

Nahdat al-Sharifi. (n.d.). From the Beauties of the Rhythmic Element.

Al-Nisaburi, Nizam al-Din al-Hasan bin Muhammad. (1416 AH). Gharib al-Quran wa Raghayib al-Furqan (Edited by Zakariya Umayrat). Dar al-Kutub al-Ilmiyah, 1st ed.

المقدمة